

المفسر عبد الله بن فوده وأثره الديني في نيجيريا الإسلامية

د. عبد العظيم محمد الأجل*

الحمد لله الذي تفرّد بالبقاء، واختص بالعظمة والكبرياء، ورفع بعض خلقه على بعض درجات، ومنحهم دون عدد من نعمه الظاهرة والباطنة، وشاء للكثيرين منهم الشهرة والظهور، ولغيرهم النسيان والغمور، وأسلم على سيدنا وحبينا محمد الصادق الأمين، وعلى آله وصحابه أجمعين، ومن اهتدى بهديه ودعا بدعوته إلى يوم الدين. وبعد....

فهذه شخصية إفريقية مغمورة، وعلم من أعلامها المنسيين، وحكيم من حكمائها الذين لعبوا دوراً مهماً في حياة الإسلام والمسلمين، ومناضل من مناضليها الشرفاء الذين قلّ الزمان أن يوجد بمثلهم، أدعو الله -تعالى- أن يوفقني في تقديمه، بالإضافة للمهتمين بالدراسات الإسلامية، والشخصيات الإفريقية. لدوره البارز والمهم في مستقبل قارتنا السمراء، وبقائها مستتيرة بنور الإسلام، والله المستعان في كل قول وفعل، يسير أو جليل، وله الفضل والجميل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

نسبه ومولده:

يقول الأستاذ أبوبكر محمود⁽¹⁾ في تقديمه لطبع ضياء التأويل في معاني التنزيل: "هو الأستاذ أبو محمد عبد الله بن محمد الملقب بفودي بن عثمان بن صالح بن هارون بن محمد بغرد بن جب بن محمد سنبو بن أيوب بن ماسران بن بوبا بابا بن موسى جكل"⁽²⁾.

وقبيلته أهل ثور، يرجع أصلهم إلى بلاد (فوت ثور) الواقعة غرب بلاد نيجيريا، وهي أصل الفلانيين، سبقوا الفلانيين إلى بلاد الهوسا، أي: نيجيريا اليوم بسبع سنين، اختلف في أصلهم الأول فقيل: من نصارى الروم. وقيل: من بنى إسرائيل، وصلهم الفتح الإسلامي إبان انتشار الإسلام في إفريقيا،

❖ جامعة 7 أكتوبر - كلية المعلمين - مصراتة - ليبيا.

فأمن ملكهم وتزوج ابنته عقبة بن نافع الصحابي المجاهد - عليه السلام - أمير الغرب، فولدت قبيلة فلان المشهورة.

وجد قبيلة المؤلف روم بن عيص الذي يرجع نسبه إلى نبي الله إسماعيل بن إبراهيم خليل الله - عليه السلام - اهـ⁽³⁾ بتصرف.

ولد - رضي الله عنه - سنة 1179 هـ الموافق 1866 م⁽⁴⁾.

نشأته وتطور حياته:

في بيت علم وصلاح نشأ وترعرع عبد الله بن فوده، الأمر الذي هيا له ظروف العلم، والعمل والإصلاح بصورة أكثر وأكبر، حيث كان أبوه عالماً، وأخوه عثمان كذلك، زد على ذلك رغبته الكبيرة في الاستفادة العلمية، بفضل النشأة الصالحة التي نشأها ودرج عليها، والتربية الإسلامية الصحيحة التي ألقتها نفسه وامتزجت بها روحه، فصارت جزءاً لا يتجزأ من حياته المليئة بالهدى والصالح منذ الصغر، فتطلعت للعلم والثقافة، ثم أنتجت فكراً وجهاداً، كانا مصدر إشعاع فكري للمسلمين في عصره، وقدوة حسنة يقتدي بها في الدفاع عن الإسلام والمسلمين، وتطبيق مبادئ الدين الإسلامي الحنيف، وأحكامه بصدق وإخلاص في حياته وبعد وفاته.

وعلى الرغم من صعوبة التلقي العلمي في حلقات تلك الدروس العلمية المنتظمة، وما يكابده طالب العلم من مشاق، وما يواجهه من عقبات في ذلك الوقت، تتمثل في الكتاب المقرر للدراسة، والأسلوب الذي يدرس به هذا الكتاب أو ذاك، فلم تكن هناك كتب مبسطة لتعليم اللغة، ولم يكن لدى الطالب كتاب يبدأ منه ثم يتدرج، ولكنه يتعلم من خلال قراءة الكتب الدينية، ويخوض في قراءة كتاب صعب؛ كالمدونة، أو مقامات الحريري أو المعلقات، بدون أن يكون له أساس في الفقه الإسلامي أو اللغة أو الأدب.

ثم إن طريقة التدريس كانت عبارة عن تلقين الألفاظ ومعانيها باللغة المحلية، وترديدها وحفظها بهذه الطريقة، فلا يجد الطالب فرقاً بين ألفاظ المقامات وغيرها، فكلها ألفاظ غريبة لا بد من حفظها وحفظ معانيها⁽⁵⁾. على الرغم من كل ذلك، فإن ابن فوده قد قطع هذا الطريق الصعب بفخر واعتزاز، بل ويتفوق ونجاح عظيمين، متمثلاً قول الشاعر امرؤ القيس بن حجر:

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى فما انقادت الآمال إلا لصابر

ومن ثم فقد ظل ينهل العلم والمعرفة منذ نعومة أظفاره وأول حياته، وهو لا يزال طفلاً، فبدأ بالقرآن الكريم، فقرأ على والده محمد فوده، وتعلم المبادئ الدينية كما يتعلمها الأطفال في الكتاب، ثم

بدأ يقرأ على شقيقه الشيخ عثمان بن محمد فوده، بعد أن تعلم قراءة القرآن، وهو إذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة (6)، فدرس عليه عددا من الكتب في مختلف العلوم والمعارف، بالإضافة إلى مؤلفات الشيخ عثمان نفسه، التي أعطته أساسا متينا في علوم القرآن والحديث والفقه والنحو والتصوف، ووجد بها ثقافة تجعله من العلماء في تلك الفترة.

ولكن الشيخ عبد الله بن فوده لم يكتف بهذه الثقافة، فقد أخذ بعد ذلك ينتقل من عالم إلى آخر، حسب التقاليد المتبعة في تلك الآونة، فإذا سمع بعالم متخصص في الفقه مثلاً، ذهب إليه وسمع منه وقرأ عليه تخصصه (7). وهو في ذات الوقت يعمل مع أخيه عثمان على إحياء السنة وإخماد البدعة، ومحاربة أهل الكفر والضلال، وقد رافقه في جميع رحلاته الجهادية إلى ولايات الهوسا من غوبر وزمفرة قبل إعلان الجهاد (8)، واعظاً مرشداً أهل الإسلام إلى الطريق السليم والمنهج الصحيح، ومبشراً وداعياً أهل الكفر والضلال إلى الدين الصحيح والسعادة الأبدية، بالدخول في الدين الإسلامي، دين الفلاح والصلاح.

فكان عبد الله ساعده الأيمن، وأقرب الناس إليه، كاتم سره، ومنفذ أوامره طيلة حياته. وصفه ابن أخيه محمد بللو في كتابه (اتفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور): "بأنه هو وزير الشيخ عثمان الأكبر، وركنه الأبهى، وشقيقه الأكبر" (9)، إلى أن ضاق بهم أعداء العدل والإسلام، أعداء الحرية والسلام نزعاً، فاضطروهم وأتباعهم إلى الهجرة من بلادهم ومسقط رؤوسهم. ثم اضطروهم مرة أخرى للدفاع عن أنفسهم ودينهم الذي حوربوا واضطهدوا من أجله، فسلحوا أنفسهم بسلاح آلة الحرب - السلاح التقليدي - بعد سلاح الإيمان بالعقيدة، والمبدأ الذي نشأوا وتربوا عليه.

وفي سنة 1804م، وعندما بدأ الجهاد ضد الهوسا، أصبح الشيخ عبد الله واحداً من أهم المستشارين، والقادة العسكريين (10) الذين لا يقطع برأي دونهم، ولا يفصل في أمر عند غيابهم.

يقول الأستاذ أبو بكر محمود في هذا الصدد: "لقد كان قطب رحي جهاد الشيخ عثمان، وقائد الجيوش، وشيخ المدارس، وإمام المساجد، ومدير السياسة ومؤسستها، ومقيم العدل وبانيه" (11). أخذوا بعد إعلان الجهاد يحصدون دعاة الأوثان والوثنية، ويجتثون رؤوس النفاق وأهل البدع والضلالات، من الحكام المتسلطين المارقين، وغيرهم من الذبول والأذئاب الفاسدين، الذين لا يعيشون إلا في مثل هذه الأجواء الموبوءة، وتهاوت أمام ضرباتهم المحكمة الممالك والدويلات الضعيفة الهزيلة، الواحدة بعد الأخرى. وبذلك انتشر في ربوع تلك المنطقة، وبين شعوب تلك الولايات الإسلام والسلام، والعدل والرخاء، والعلم والثقافة.

وفي سنة 1812م، وبعد أن استكمل الشيخ عثمان فتوحاته فعليا، قسم الإمبراطورية الإسلامية الفتنية، بين ابنه محمد بللو وأخيه عبد الله، فحكم عبد الله نصيبه من قواندا⁽¹²⁾، وبذلك أصبح الأمير الفلاني الأول لقواندا⁽¹³⁾.

وفي سنة 1817، وعندما توفي عثمان بدون أن يعلن عن خليفته، كان عبد الله بعيداً عن عاصمة سكتو، فعاد مسرعاً ليطالب بالزعامة، وبعد أن تم له ذلك، استمر يحكمها حتى سنة 1820م. وبعد ذلك ذهب إلى جهة منعزلة ليكرس حياته للعلم، ويتفرغ للدراسة والكتابة، تاركا الأمور الإدارية وشؤون القيادة لأبنه وابن أخيه، كما فعل الشيخ عثمان ومحمد⁽¹⁴⁾ آل بيته وقرابته الأقرين، فاتبع -رحمه الله- طريقة أسلافه من قبله. ترك الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، من أمور الدولة ورسمياتها، إلى التأليف والتدريس والوعظ والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفاته:

كانت وفاته -رحمه الله- "سنة 1240 هـ الموافق 1829م في قواندا"⁽¹⁵⁾ عن عمر يناهز الستين سنة، قضاه في خدمة العلم وأهله، ونصرة الإسلام والمسلمين، والقيام بأمرهم على أحسن ما يكون؛ ناصحا معينا، وخادما آمينا.

عصره الذي عاش فيه

ملحة عامة:

يقتضي الحديث عن عصر ابن فوده، الإشارة أولاً إلى أخيه الشيخ عثمان الذي يكبره باثني عشر سنة، وثورته الإصلاحية الإسلامية التي قام بها، ومملكته الإسلامية التي أسسها، وشارك فيها عبد الله بنصيب وافر، حيث "كان مرافقا لأخيه عثمان في عمله الإرشادي، وقائدا للجيش الإسلامي في الجهاد سنة 1804م في أرض الهوسا"⁽¹⁶⁾.

و "كان مولد الشيخ عثمان بن محمد فودي في أواخر صفر سنة 1168 هـ، الموافق ديسمبر 1754 م بفوت، ووالده محمد الملقب بفودي، ومعناه باللغة الفلانية: الفقيه، ينتمي إلى قبيلة فلانية تسمى تورب، وهي من القبائل الفلانية التي هاجرت من فوت -تقع الآن في السنغال-، إلى أن وصلت تدريجياً بعد سنين إلى غوبر إحدى ولايات الهوسا حيث استقرت"⁽¹⁷⁾. شب الغلام في قرية تسمى طغل، وقرأ القرآن على والده، وبعد أن أكمله وانتهى من حفظه، شرع ينتقل من عالم إلى آخر، يتعلم ويتفقه، حتى أصبح عالماً كبيراً.

ومن أشهر العلماء الذين قرأ عليهم وتأثروا بهم: الشيخ جبريل بن عمرو الذي كان من أكبر العلماء في ذلك الزمان، والذي صاحبه الشيخ عثمان نحو سنة وتأثر به كثيراً، حيث أقر الشيخ عثمان نفسه بذلك فيقول: "إنه أول من قام بهدم العوائد الذميمة في بلادنا السودانية هذه، وكان كمال ذلك ببركة الله على أيدينا"⁽¹⁸⁾.

وعندما ناهز الشيخ عثمان العشرين سنة، بدأ بحركته الإصلاحية، فكان يدرس للناس، ويعلمهم ويرشدهم، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويدعوهم إلى ترك العوائد المخالفة للشرع، وإحياء السنة وإخماد البدع⁽¹⁹⁾.

ولم يزل يناضل في هذا المضمار؛ ينتقل من قرية إلى قرية، ومن مكان إلى آخر، يصحبه في جميع هذه الرحلات الجهادية، لنشر الدين الإسلامي أخوه عبد الله، حتى اشتهر أمره وعلا صيته، وكثرت جماعته، وقويت شوكتهم، حتى اضطر أعداؤهم أن يحسبوا لهم ألف حساب، زد على ذلك طباع الشيخ عثمان، ونفسه القوية التي لم تكن تعرف المهادنة أو المصالحة أو الاستسلام على حساب الدين، فلم يكن يبالي بالملوك والحكام في زمانه، ولم يسر إليهم أو يتودد لهم، كما يفعل غيره من العلماء، حيث كانوا يلتفون حول الملوك، يطلبون الرزق منهم ويسعون في رضاهم، ولما "اشتهر أمر الشيخ، وفد إليه الناس من كل صوب ينتفعون بمواعظه، ويتأدبون بأدابه، ويدخلون في جماعته أفواجا"⁽²⁰⁾.

كان أول أمير قصد الشيخ أمير غوبرباوا، "فبين له الإسلام الصحيح ونصحه باتباع السنة، وإقامة العدل في بلاده. ولعل أمير غوبر أصغى إليه أول الأمر، ولكنه لما فكر في أمره وقدره، أدرك خطورة هذه الحركة الإصلاحية التي يدعوا لها الشيخ عثمان، فخاف منه وضاق به ذرعاً. وقبل أن يتخلص منه وافاه الأجل، فخلفه أخوه يعقوب، وبعده نافتا، وهو الآخر أراد أن يطفئ نور تلك الحركة الإصلاحية، إلا أن مدة ملكه لم تطل فلم يلبث أن قضى نحبه. ثم تولى من بعده ابنه ينفاء، وكان كسلفه أو أشد منه كراهية للحركة الإصلاحية"⁽²¹⁾. التي تستهدف تحطيم الفساد والبدع، وإقامة القوانين الإسلامية العادلة المنصفة، ومراعاة حدود الإسلام، والعمل بشرعه.

ولما كثرت المضايقات والتواعدات والمكائد للشيخ وأتباعه، أخذوا في تسليح أنفسهم ضد أعدائهم الذين يتطيطرون بهم، وامتألت صدورهم حقداً وغيظاً عليهم، وعلى شيخهم عثمان، لما كان يتمتع به من احترام وتقدير من جماعته، ولترايد عددهم في كل وقت وحين⁽²²⁾. "وهذا أمر طبيعي شاهدها ونشاهده في جميع حركات الإصلاح في العالم، على مر العصور والأزمان.

وأخيرا اضطر الشيخ عثمان وأتباعه للهجرة، فخرجوا من قريتهم طغّل وهاجروا إلى مكان قرب حدود ولاية غوبر يسمى غد، وكان ذلك يوم الخميس الثاني عشر من ذي القعدة سنة 1318 هـ، الموافق الحادي والعشرين من فبراير سنة 1804م⁽²³⁾.

ولما أصبحت هذه الجماعة منعزلة عن غيرها، رأت أن لا بد من اتخاذ إجراءات مهمة ولازمة لتنظيم نفسها، حتى لا يدهمها الخطر المحدق بها من كل جانب، فاجتمع أعضاؤها البارزون الذين من بينهم القائد الثاني لهذه الحركة عبد الله بن فوده. اتفق هؤلاء الأعضاء أولا على أن يختاروا رئيسا لهم، فوقع اختيارهم على صاحب الفضل والنعمة عليهم معلمهم الأول عثمان بن فوده، فبايعوه قائدا وإماما لهم على الكتاب والسنة، وأول من بايعه أخوه عبد الله وابنه محمد بللو، وبعده صاحبه عمر الكم، ثم بقية الجماعة⁽²⁴⁾.

لاشك أن يساعد هذا الاتفاق، وهذا التنظيم على تغيير مجريات الأحداث، وأن تكسب هذه الحركة الفنية دفعا جديدا بالاتفاف حول مؤسسها الأول، وقائدها المؤمن بربه، المخلص لعقيدته، والمهتم بشعبه، فمن ترقب الأحداث ومستجداتها إلى صنعها، ومن موقف المدافع إلى موقف المهاجم وصانع الأحداث.

وعندما أعلن الشيخ عثمان الجهاد، توالى المعارك بينه وبين ملوك غوبر، حتى أسفرت هذه المعارك عن معركة فاصلة يقال لها معركة (كتو)، التي انتصر فيها الحق على الباطل انتصارا باهرا، وهو الوصف الذي وصفها به محمد بللو نفسه، لأن عدوهم جهزها تجهيزا قويا من حيث العدد والعدة، في حين كان الشيخ عثمان وأتباعه في قلة من العدد والعدة بالنسبة إليهم⁽²⁵⁾.

ولا غرابة أن يزيد هذا الانتصار العظيم على قوى الشر والفساد من حماس المسلمين، وأن ينشطوا لنشر دينهم ومحاربة من يخالفهم، من الذين لا يملكون من الإسلام إلا اسمه، وأن تتطلع نفوسهم إلى المزيد من الانتصارات، وهدم البدع والضلالات.

وبعد تلك المعركة التي وصفها أحد قادتها، الشيخ عبد الله بن فوده بهذه الأبيات من قصيدة له يقول فيها:

فشتت جمعهم وهم عطاش	جبارى مثل غوغاء الجراد ⁽²⁶⁾
قتلناهم وحزنا كل مال	لهم تركوه منثورا بواد
ففر بلا التفات ينفا يعدو	أمام خيوله تعدو بداد ⁽²⁷⁾
فأنقذه من الموت المتاح	تعلقه على عرف الجواد

سواد الليل صار لهم حصونا فبات ولم يذق طعم الرقاد⁽²⁸⁾

بعد هذه المعركة التي أظهرت أولياء الرحمن على أولياء الشيطان، أخذت الحركة الإصلاحية الفذة في الامتداد والانتشار لبث نور الإسلام الصحيح، وإخراج أهله من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى المعرفة، وبما أن الشيخ عثمان وأتباعه لم يكن هدفهم إلا الإيمان بالله والتمسك بالدين، وليس السلب والنهب تحت شعار الجهاد، لم يعتمدوا على الجهاد وحده في نشر الإسلام، بل سلكوا طريق الدعوة في أغلب الأحوال، ولم يلجؤوا للجهاد بالقوة إلا عند الضرورة⁽²⁹⁾، لذلك كتب الشيخ عثمان إلى ملوك الهوسا يبين لهم موقفه ليكونوا على علم، وذكر لهم أنه عازم على إحياء السنة المحمدية، وإخماد البدعة الشيطانية، وأمرهم أن يخلصوا لله دينه، وأن يتبرؤوا من كل ما يخالف الشرع. فوقع أمره في أذان صماء، ولم يجد كتابه قبولا حسنا من الأمراء، فمنهم من مزق الكتاب، ومنهم من توعد الكاتب وهدده⁽³⁰⁾، فأعلن عليهم الجهاد.

وعندما أخذت معارك الشيخ عثمان شكل الفتح الإسلامي المنظم، "بدأ بمدينة (كانوا) فهزم أميرها، ثم هاجم إمارة زاريا وفتحها سنة 1810م"⁽³¹⁾.

وبعد أن تم الانتصار على كل هذه الإمارات والممالك، ودخلها تحت المملكة الإسلامية الجديدة مملكة سكوتو وهي: "مملكة في السودان بين النيجر الأدنى والبنوي، مستوية في الشمال، مخرسة في الجنوب، يرويها نهرا سكوتو، وكومادوقو من بحيرة تشاد، هواؤها ناشف في الشمال، كثير الرطوبة في الجنوب، عدد سكانها حوالي (10) ملايين نسمة من الهوسا، والبهل، والتوكولور، والسونغاي، أكثرهم مسلمون، أعظم المدن فيها: كانو أورنو، سكوتو نكفي، أبد يسانغة، وياقوبا، وغوي، كما شملت هذه المملكة كل المنطقة الواقعة بين تمبكتو وبحيرة تشاد"⁽³²⁾.

لهذه المملكة الناشئة وضع الشيخ عثمان نظاما إداريا دقيقا، خاضعا للنظم الإسلامية السليمة، وجعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة، ولغة الثقافة أيضا، ثم رأى أن الأليق به حلقات العلم والدرس التي اشتاق إليها، وأن يتولى زمام القيادة وزيريته: ابنه محمد بللو الذي ولاه على البلاد الشرقية، وأخوه: عبد الله الذي ولاه على البلاد الغربية، وبذلك كان عبد الله أول أمير فلاني على قواندا⁽³³⁾، وأمرهما بإقامة العدل بين الناس، وإخلاص النية، وصدق العزم. وفرغ نفسه للتدريس والوعظ والتأليف، كان ذلك في سنة 1227هـ الموافق 1813م. واستمر الأمر كذلك علم وعمل، إخلاص وعدل، إلى أن توفي الشيخ سنة 1232 هـ الموافق 1817م. وعمره ثلاث وستون سنة⁽³⁴⁾،

قضاها في محاربة البدع والضلالات، ونشر الإسلام وقتال خصومه ومحاربتهم، وخدمة العلم وأهله. كما يعتبر ضريحة في سكوتو مزارا للمسلمين حتى الآن⁽³⁵⁾.

لقد ازدهرت الثقافة العربية الإسلامية، ولغتها العربية في الدولة الإسلامية الفتية التي بنيت دعائمها، وأسست قواعدها على أساس ديني إسلامي صحيح، من حيث إن هذه المملكة الواسعة لا بد أن يكون لها ديوان أو عدة دواوين، ولا بد أن تكون لها محاكم شرعية، إلى غير ذلك مما تتطلبه الدولة المسلمة. زد على ذلك أنه لا بد لهذه الحكومة من عدد من المثقفين الذين يمكنهم أن يقوموا بإدارة تلك الدواوين.

وبما أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية لهذه الدولة الفتية، فلا بد إذن أن تهتم بها حكومتها المسلمة وتتقف بها أبناءها، وقد قامت بذلك خير قيام، فشجعت العلماء على فتح أبواب بيوتهم على مصاريعها لتدريس الدين واللغة العربية⁽³⁶⁾، ومن جملة هؤلاء العلماء الشيخ عثمان نفسه، الذي ترك الأمور السياسية والعسكرية لغيره، وأخذ في تعليم وتنقيف أبناء مملكته الفتية.

إن هذه الحكومة لم تفتح مدارس نظامية على النسق المتعارف عليه حالياً، بل كان العلماء يتطوعون لذلك بدون مقابل، ولا يبتغون بذلك إلا وجه الله تعالى، وكان العالم أو الفقيه الذي لم يفتح باب داره لطلبة العلم، كان يعلم على الأقل أصحابه وأهل عشيرته⁽³⁷⁾، وبذلك نشطت حركة التعليم، وازدهرت الثقافة الإسلامية واللغة العربية، التي أصبحت لغة الثقافة والتعليم، ولعل مرجع ذلك إلى العناصر التي تسير دفة الأمور في هذه الدولة، حيث إن الوزراء والحكام في هذه الدولة كانوا من العلماء⁽³⁸⁾.

أضف إلى ذلك التعطش الديني لهذا الشعب، خاصة بعد أن وجدوا من أنقذهم من الحكام الذين لا يعرفون عن الإسلام إلا اسمه، وساروا خلف زعيم؛ الإيمان بالله عقيدته ومذهبه، والإخلاص للوطن دينه، وحب شعبه مبدؤه، والعدل بين أبناء وطنه سجيته وغايته.

كثرت المدارس غير النظامية وزاد عدد المقبلين عليها، وكثر العلماء وتنوعت مجالسهم العلمية، لا في سكوتو وحدها التي أصبحت في تلك الآونة عاصمة الدولة، ومركزاً جديداً للعلم والثقافة، بل في المراكز الأخرى مثل: قواندا، وكنو، وكنتة، وزكرك⁽³⁹⁾ وغيرها، فازدهرت اللغة والثقافة العربية، وكذلك الدين الإسلامي في هذه البلاد، قبل أن تنتسرب إليها الديانة المسيحية والثقافة الأوروبية الحالية⁽⁴⁰⁾، على أن هذا الازدهار الذي شهدته هذه الثقافة في تلك الفترة، لم يكن متوافراً في الفترة السابقة قبل ظهور مملكة سكتو، وإن كثر عدد العلماء في ولايات الهوسا ومملكة البرتو⁽⁴¹⁾. ولكنهم لم

يستطيعوا الوقوف في وجه الحكام، والأمراء العابثين الذين يكرهون العلم وأهله، والإصلاح والقائمين عليه، وقد فعلوا ذلك مع الشيخ عثمان وأتباعه من الذين اهتموا، وتسلحوا بالعلم والإيمان.

وعلى سبيل المثال: فإن "عدد العلماء الذين جمعهم سلطان غويرباوا في عيد الأضحى للمناظرة مع الشيخ عثمان في سنة 1202 هـ الموافق 1788 م كان فوق الألف"⁽⁴²⁾، وإذا كان عدد العلماء في ولاية غوير التي لم تكن ولاية مسلمة كلها قد بلغ هذا الحد، فلا شك أن العدد يكون أكثر في ولاية مثل: كنو وكنتة، لأهميتهما العلمية والتجارية، ولأن صلتهم بالعالم الإسلامي كانت أكثر من بقية الولايات⁽⁴³⁾ الأخرى؛ القريبة منها والمجاورة لها.

لكن هؤلاء العلماء الأجلاء قد اكتفوا بالتدريس لأقاربهم وآل بيتهم؛ كما فعل والد الشيخ عثمان، أو من تقصدهم من أبناء قراهم وسكان مدنهم.

ثقافته وآثاره العلمية

عاش ابن فوده حياة زاخرة بالعلم والمعرفة منذ كان طفلاً، وحتى يفغ ورشد، ثم شاب واكتهل، إلى أن انتقل إلى جوار ربه مغفورا له.

قضى مراحل حياته على اختلافها في طلب العلم والتحصيل، تدفعه إلى ذلك الرغبة في العلم والتعليم، والآمال العظام للوصول إلى أرفع الدرجات وأسمى الغايات، تشجعه في بداية حياته أسرته التي فطنت لفضل العلم والإيمان، فاغترفت من رحيق كأس العرفان، حيث قرأ القرآن على أبيه، ثم انتقل إلى أخيه الأكبر الشيخ عثمان، وكان صنوه بينهما نحو من اثنتي عشرة سنة، فتركه أبوهما في يده وهو في سن الثالثة عشرة⁽⁴⁴⁾.

أخذ عن أخيه عثمان كثيرا من العلوم والمعارف، فدرس عليه العشرينيات والوتريات⁽⁴⁵⁾ والشعراء الستة⁽⁴⁶⁾، وعلم التوحيد من الكتب السنوسية وشروحاتها، وأخذ عنه الإعراب من الأجرومية والتحفة والقطر، وأخذ عنه علم التصوف الذي للتخلق والذي للتحقق، وأخذ عنه التفسير والفقه، والحديث وعلم الحساب.

ومن مؤلفات الشيخ عثمان و"توا ليفه المفيدة العربية والعجمية، فما ألف كتابا من أول تواليفه إلى الآن، إلا كنت أول من نقله عنه غالبا، وصحبته حضرا وسفرا ما فارقتة منذ أن حصل لي الآن قريب من خمسين سنة، والحمد لله على ذلك"⁽⁴⁷⁾.

هذه هي حياة العلم والعلماء التي عاشها عبد الله بن فوده، فأكسبته علما غزيرا، انعكس على حياته تأليفا وبحثا، وحكمة وجهادا، فلم يكن صاحبنا مفسرا فقط، أو فقيها فقط، إنما هو الحكيم المتقف الذي ألمَّ بآطراف العلوم المختلفة، ثم جمع تلك الأطراف وبرع في جميعها، فأفاد منها واستفاد الكثير -شأنه شأن كبار العلماء أمثال؛ الإمام الغزالي والإمام السيوطي- ولا عجب أن تكون هذه حياة من شب على طلب العلم والمعرفة، وسعى إليها حثيثا، أن يبرز في سائر العلوم، "كان -رحمه الله- العالم العلامة، النظارة الفهامة، شيخ الشيوخ، المصنف المفسر المحدث، الراوية الحافظ، المقرئ المجود، النحوي اللغوي البياني المتقن، الآخذ من كل فن بأوفر نصيب، الراجع من كل علم مرعاه الخصب، الخطيب الشهير، آخر السادات الأعلام وخاتمة النظار، ذا التحقيقات الشهيرة البديعة، والأبحاث الأنيقة الغريبة، المتفق على علمه وهديه ممن قل سماح الزمان بمثله"(48).

ومن البديهي أن عالما هذه أوصافه ومميزاته، أن يكون أبرع أهل زمانه وأفضل أقرانه، وكيف لا يكون ذلك وقد درس كل هذه الكتب، والمؤلفات على أخيه الشيخ عثمان، الذي شهد له الأولون والآخرين بالفضل والعلم، ولا شك أن تسهم هذه الكتب في ثقافة الشيخ عبد الله، وأن يجد بها ثقافة تجعله من العلماء في ذلك العصر.

ولكن الشيخ عبد الله لم يكتف بهذه الثقافة، فقد جعل بعد ذلك ينتقل من عالم إلى آخر حسب التقاليد المتبعة في تلك الآونة، فإذا سمع بعالم متخصص في الفقه مثلاً، ذهب إليه وسمع منه(49) العلم الذي يدرسه، وتلقى عنه الفن الذي تخصص فيه، حتى استطاع أن يأخذ العلم والمعرفة عن عدد من مشاهير العلماء، وأصبح بالتالي واحدا منهم، تبحر في جميع العلوم وفي شتى الفنون. "ومن الكتب التي درسها عليهم في النحو والصرف: شذور الذهب وشروحه، بلوغ الأرب، وخلاصة ابن مالك وشرحها، البهجة المرضية للسيوطي، والمنهج السالك للأشموي، والفريدة للسيوطي، والتحفة الوردية وشرحها للشيخ محمد الوالي. وفي البلاغة درس: تلخيص المعاني، وألفية المعاني مع شرحه، والجواهر المكنون مع شرحه، وشرح النقاية للسيوطي. وفي الفقه وأصوله: شرح مختصر خليل، والورقات لإمام الحرمين والقوافي، والكوكب الساطع، وجمع الجوامع مع شرحه. وفي الأدب: مقامات الحريري. وفي العروض والقوافي: الرامزة والدرر اللوامع للطاهر"(50) إلى غير ذلك من الكتب والمؤلفات المتعددة. ثم إن الشيخ عبد الله أثناء تنقله وترحاله بين يدي العلماء، ربما درس كتابا على واحد منهم، ثم درسه مرة أخرى على غيره.

كل ذلك يؤكد أن الثقافة التي نالها الشيخ عبد الله، كانت بدون شك ثقافة عالية واسعة النطاق⁽⁵¹⁾، لما تمتع به من استعداد فطري أهله لذلك، واستعداد ذهني أهله لهضم تلك الثقافة، أضف إلى ذلك طموح نفسه لتحصيل العلم والمعرفة، وتطلعه لآمال عظيمة تقصر دونها الهمم، وتكل دونها العزائم. ومن ثم فقد صار عالماً بالفقه وأحكامه، واللغة وشواردها، ومبرزاً في التفسير وعلومه، والحديث وعلومه، ملماً بالنحو والصرف والبلاغة والأدب والعروض والقوافي، والتوحيد والتصوف والأصول. وصح وصفه بالفقيه، اللغوي، المفسر، النحوي، الأديب، الشاعر، العروضي، المتكلم، المتصوف، الأصولي.

شيوخه:

قلما تتوافر الرعاية العلمية للإنسان، وهي وإن توافرت، فغالبا ما تكون على حساب شيء آخر -كضيق في العيش مثلاً-. أما صاحبنا فقد توافرت له هذه الرعاية، على سعة رزق ورغد في العيش، ذلك أنه درس كتاب الله -تعالى- في بداية حياته على من تولى توجيهه وتربيته، ويحرص على مصلحته، حيث إن طبيعة الآباء الكفاح والحرص من أجل أبنائهم ومصلحتهم.

وفي سن الثالثة عشرة تركه أبوه لأخيه الشيخ عثمان "يقول هو عن نفسه في كتابه إيداع النسخ: ومن شيوخه الذين أخذت العلم عنهم أمير المؤمنين شقيقي عثمان بن محمد، وأما حواء بنت محمد بن عثمان بن حم بن عال"⁽⁵²⁾.

ومن شيوخه: الشيخ جبريل بن عمرو الذي كان شيخاً لأخيه عثمان أيضاً.

ومنهم أيضاً: الشيخ أحمد بن غار، هذا عدا شيوخه الكثيرين كما يقول الأستاذ أبوبكر محمود: "يقول صاحب كتاب إنفاق الميسور: أخذ عن أخيه القطب عثمان، ووازره وكفاه المهمات من أمره، وعن الشيخ جبريل بن عمرو، والشيخ أحمد بن غار، وغيرهم"⁽⁵³⁾ من جهازة العلم والمعرفة الذين تنقل بينهم وأخذ عنهم.

ومنهم الشيخ محمد المغوري، يقول عبد الله بن فوده: "إن الشيخ محمد المغوري كان مشهوراً بتعليم المختصر في بلادنا شهرة الشمس، وكل من لم يقرأ المختصر عنه في بلادنا فكأنه لم يقرأ، فمن الطبيعي إذن أن يقصد إليه عبد الله ويقرأ عليه المختصر، الجزء الأول، وكان ذلك سنة ألف ومائتين من الهجرة، ألف وسبعمائة وخمس وثمانين ميلادية"⁽⁵⁴⁾.

ومن شيوخه أيضاً: الشيخ محمد سمبو بن عبد الرحمن، تلميذ الشيخ المغوري، الذي قرأ عليه الجزء الثاني من مختصر الخليل، بعد قراءته للجزء الأول على الشيخ المغوري⁽⁵⁵⁾.

ومن شيوخه أيضا: الشيخ المصطفى بن الحاج عثمان، ذلك أن عبد الله "كان قد قرأ الكوكب الساطع عن الشيخ جبريل، فأخذه مرة ثانية من المصطفى بن الحاج عثمان، وأفاده هذا الشيخ بأشياء لم يفهمها عند الشيخ جبريل.

ويقول الشيخ عبد الله: إنه أخذ العلم عن عدد كثير من الشيوخ -لا يستطيع أن يحصيهم- وكم عالم أو طالب علم أتانا من الشرق فاستفدت منه مالا أحصيه⁽⁵⁶⁾.

وأخيرا فإن من شيوخ عبد الله بن فوده: خاله وعمه الشيخ محمد بن راج بن مؤدب، الذي كان متخصصا في تدريس البخاري، كما أن الشيخ جبريل كان مشهورا بتدريس الكوكب الساطع للسيوطي⁽⁵⁷⁾.

وهكذا يتضح أن كثرة العلماء وتوزع التخصصات العلمية بينهم، جعلت ابن فوده ينتقل من عالم إلى آخر، ومن قرية إلى أخرى طلبا للعلم والاستفادة.

مؤلفاته:

لعبد الله بن فوده مؤلفات كثيرة برهنت على غزارة علمه، وعلو مكانته، وطول باعه في ميدان العلم والمعرفة، ولذلك قال الأستاذ أبو بكر محمود: "للشيخ عبد الله كرامات كثيرة، منها غزارة علمه الدالة عليها كثرة مؤلفاته التي لا يقل عددها عن مائة كتاب، مع ما هو فيه من الأشغال الشاقة في وقت الهرج وقلّة الراحة"⁽⁵⁸⁾، حيث إنه الرجل الثاني في دولة سكتو الإسلامية. وإليك بعضا من هذه المؤلفات:

أ - الكتب المطبوعة:

1- ضياء التأويل في معاني التنزيل: وهو كتاب في التفسير يقع في أربعة أجزاء، فرغ من تأليفه سنة 1231هـ⁽⁵⁹⁾.

2- كفاية أهل الإيمان في تفسير القرآن: وهو كتابه الثاني في التفسير، "يعتبر تلخيصا لما جاء في ضياء التأويل، الذي كان حافلا ببيان القراءات السبع، وبيان أقوال الأئمة الأربعة، وبيان علوم العربية والبلاغة والأصول، وترتيب الغزوات والسرايا وغير ذلك. لخصه مقتصرا على رواية ورش فقط، وعلى مشهور مذهب مالك، والضروري من علوم العربية، وسماه كفاية أهل الإيمان في بيان تفسير القرآن"⁽⁶⁰⁾ "أكمله في 7 جمادى الأولى سنة 1238هـ، وفرغ من نسخه في 10 جمادى الأولى سنة

1242هـ⁽⁶¹⁾. وهو ما يسميه أيضا: كفاية ضعفاء أهل السودان⁽⁶²⁾، والكتاب مطبوع في جزأين من الحجم المتوسط.

- 3 - إيداع النسوخ: وهو كتاب يتناول حياة عبد الله بن فوده، حيث يذكر فيه قصة حياته وتعليمه وشيوخه، حسب ما يتضح من نقول الدكتور شيخو أحمد من هذا الكتاب⁽⁶³⁾.
- 4 - تزيين الورقات: يبدو أنه ديوان شعر للشيخ عبد الله بن فوده، حيث ضمَّه ما قاله من قصائد في مختلف الأغراض والمناسبات⁽⁶⁴⁾.

ب - الكتب المخطوطة: في النحو والصرف:

1- البحر المحيط: وهو كتاب نظمه عبد الله بن فوده في النحو وسماه البحر المحيط، عدد أبياته أربعة آلاف وأربعمائة بيت.

- 2- الحصن الرصين: كتاب في الصرف نظم أيضا، عدد أبياته ألف بيت⁽⁶⁵⁾.
وفي التفسير:

- 1- الفوائد الجليّة: نظم ما في الشوشاوي من علم التفسير⁽⁶⁶⁾.
- 2- مفتاح التفسير: نظم ما في الإتيقان والنقاية من علم التفسير للسيوطي⁽⁶⁷⁾.
- 3- سلالة المفتاح نظم.

وفي الفقه وأصول الشريعة:

- 1- خلاصة الأصول في علم أصول الفقه.
- 2- ضياء الحكم.
- 3- ضياء السياسات.

4- تقریب الضروري من علوم الدين.

وله في علم المنطق: مفتاح التحقيق.

وفي العروض والقوافي: له فتح اللطيف.

وفي التوحيد وعلم الكلام:

- 1- نظم العقيدة للسيوطي وشرحها للسنوسي.
- 2- نظم النقابة للسيوطي.
- 3- مفتاح الأصول⁽⁶⁸⁾.

- 4- وله كتاب في حقوق الإخوان.
- 5- وكتاب في دفع الوسواس.
- 6- ضياء أولى الأمر والمجاهدين.
- 7- ضياء السلطان.
- 8- ضياء السنة.

لقد عكف العلماء الذين من بينهم عبد الله بن فوده على التعليم والبحث العلمي، فألفوا في شتى العلوم والفنون، ذلك لأن "مؤلفات الشيخ عثمان، وعبد الله، وبللو وغيرهم كثيرة جداً. وقد أورد الدكتور مرري لا ست في كتابه the sokoto caliphate قائمة ببعض تلك المؤلفات. فذكر ثمانية وثمانين مؤلفاً من مؤلفات الشيخ عثمان، وسبعة وسبعين للشيخ عبد الله، وثمانية وتسعين للشيخ بللو" (69).

هذه الثروة من الثقافة الإفريقية الأصيلة، تظل وللأسف الشديد مغمورة، لم تصلنا ولم نعرف عنها إلا النزر اليسير، كل ذلك بفضل من اقتحموا تلك الديار، وطمسوا تلك المعالم الثقافية الرائدة من مدعي الحضارة والتطور، بحيث لم نستطع التعرف على قادة حركة الإصلاح، والثورة الإسلامية في مطلع القرن التاسع عشر إلا بصعوبة بالغة، فضلاً عن الوقوف على مؤلفاتهم وآثارهم العلمية، حيث إننا لم نستطع حتى الآن معرفة جميع مؤلفات عبد الله بن فوده، فضلاً عن معرفة ما تعالجه بعض هذه المؤلفات.

ورغم المشاغل السياسية والعسكرية من تدبير أمور الدولة، ومحاربة أهل البدع والضلالات، كان عبد الله بن فوده شاعراً كثير الإنتاج، ومؤلفاً للكتب بالعربية، والفلاية، ولغة الهوسا، كان أحد أعماله عن حياة أخيه عثمان، وما قام به من أعمال طوال حياته الحافلة بنشر الدين الإسلامي، وما شاهده معه أثناء رحلاته لنشر الدين الإسلامي في ولايات الهوسا؛ من غوبر، وزمفرا (70)، وغيرها من الولايات المجاورة التي قصدها الشيخ عثمان، ثم إعلانه الجهاد، وانتصاراتهم على أعدائهم، ثم إرساء نظام الدولة الإسلامية الجديدة، إلى أن تفرغ الشيخ عثمان للتأليف والوعظ والتدريس، وحتى وفاته سنة 1817م.

شعره وجهاده:

كان الجو السياسي والديني والاجتماعي مملوءاً بالاضطرابات الشديدة في أوائل فترة مملكة سكتو، وكانت الحروب الكثيرة تدور رحاها في أنحاء المملكة والممالك المجاورة لها. فكانت البيئة كلها شديدة

الاضطراب، قليلة الاستقرار⁽⁷¹⁾، ولاشك أن يهيئ هذا الجو قرائح الشعراء، ويستحثهم على إقراض الشعر وإنشاده، خاصة وأن انتصاراتهم الحربية تزداد كل يوم، ومملكتهم تتوسع من حين لآخر. كان الشعراء الذين من بينهم عبد الله بن فوده يسجلون انتصاراتهم العسكرية المتتالية في أشعارهم، ويصفون معاركهم، وقوتهم في هذه المعارك، وتخاذل خصومهم وضعفهم أمامهم. ولذلك كثر في هذه الفترة الشعر الذي يمكن تسميته بشعر الحرب أو شعر الجهاد⁽⁷²⁾. الذي يستهدف إثارة حماس المجاهدين للدفاع عن دينهم وعقيدتهم، والنيل من أعدائهم وخصومهم، وتسجيل النصر والغلبة على أعدائهم.

كذلك تناول الشعراء الشعر التعليمي في ذلك الوقت، فنظموه في مختلف الفنون العلمية؛ من نحو وصرف، وفقه وأصول وغيرها... حيث كانت تساعدهم كثيرا على تدريس المادة العلمية، والسبب في ذلك أن الشعراء في ذلك الوقت هم أنفسهم العلماء، وأكثرهم رجال الدولة، والقائمين عليها في نفس الوقت، فكان العالم ينظم المسائل الفقهية أو اللغوية، ثم يدرسها لطلبته، فيجد الطالب سهولة في حفظ ذلك، لأنه كلام موزون مقفي، ثم إن النغمة والإيقاع من معينات الحفظ والتذكر⁽⁷³⁾. وأشهر هؤلاء العلماء والشعراء في ذلك الوقت: عبد الله بن فوده، ومحمد بللو، والشيخ محمد سمبر، وغيرهم....

وعبد الله بن فوده في مجال الشعر التعليمي، لا يشق له غبار ولا يقترب من ساحته مناسف، ومنظوماته المتعددة في مختلف المجالات والفنون العلمية تشهد بذلك، ثم إنه قال الشعر في مختلف أغراضه ومناسباته، وإن كان معظم الشعراء في عصره قد أكثروا من شعر الجهاد والمدح، كما أكثروا في الوعظ والإرشاد، وفي الشعر التعليمي عامة، ذلك أن الظروف السياسية والدينية والاجتماعية في تلك الحقبة، كانت تقتضي إنتاج ذلك النوع من الشعر⁽⁷⁴⁾ وهذا ما أملت عليه ظروف المجتمع السيئة، من الفساد الديني، والتدهور الأخلاقي، والجهل الذي نقش وانتشر بين طبقات الشعب، والفقر المدقع الذي يعانيه هذا الشعب.

كل هذه الظروف أملت على عبد الله بن فوده وغيره من الشعراء، الإقلال من الشعر في بعض الأغراض مثل: الهجاء والغزل وغيرها، والإكثار من شعر الجهاد، والشعر التعليمي، والشعر الديني، وشعر المواعظ.

وبعد أن هدأت الأمور واستقرت الأحوال باستكمال الانتصارات المؤثرة، والقضاء على أمراء الفساد والضلال في تلك المنطقة، أخذ العلماء الشعراء يتجهون إلى تعليم الشعب وتنقيفه، اتجهوا إلى الجهاد الأكبر بعد الأصغر، فبعد أن تم تأسيس الدولة على أسس دينية سليمة، ونظم سماوية رفيعة،

قاموا على ساق الجد ينشرون الثقافة العربية الإسلامية، وكان يشترك في ذلك رجال الدولة والشعب على حد سواء، كل حسب طاقته، فمنهم من قام بالتأليف والتدريس والوعظ؛ كالشيخ عثمان نفسه، وأخيه عبد الله، وابنه محمد بللو، بالإضافة إلى مهام الدولة، ومنهم من اكتفى بالتدريس والوعظ وهم كثيرون.

ومن ثم عكف جمع من العلماء على تأليف الكتب الدينية، وكتابة الرسائل والمنشورات التي تعالج المسائل الدينية والاجتماعية⁽⁷⁵⁾، والتي تسهم في بناء صرح المجتمع الإسلامي الجديد، الذي أرسيت دعائمه على أنقاض الإمارات والممالك المتداعية، التي أورثت المجتمع مساوئ كثيرة، وخلفت فيه آفات خطيرة، ظل يعاني منها سنين عديدة.

ولقد أنتج العلماء والأدباء في تلك الفترة كثيراً، فألفوا كتباً ورسائل عالجوا فيها كثيراً من المشكلات الدينية والاجتماعية والسياسية، وإن كان أكثرها تأليف علمية، وبما أن لبعض العلماء ميول أدبية فإنها قد ساعدتهم على التأليف في مجال الشعر والنثر⁽⁷⁶⁾.

مأذج من شعره:

كان عبد الله عالماً وأديباً، سخر هذا العلم والأدب لخدمة الإسلام والمسلمين من بنى وطنه، فقد كان شاعراً كثير الإنتاج، ومؤلفاً كتب بالعربية والفلانية ولغة الهوسا⁽⁷⁷⁾ أيضاً.

وهو كغيره من الشعراء الذين فرض عليهم المجتمع قرض الشعر في أغراض معينة، والإقلال من بعضها الآخر، ولكنه قد قرض الشعر في المناسبات المتفاوتة والأغراض المختلفة، التي من بينها: المدح، والرثاء، والحماسة، وغيرها....

ففي غرض المدح يقول مادحا شيخه الشيخ جبريل ابن عمرو، وأخاه عثمان في أبيات من قصيدة له جاء فيها:

للشرق تشرق في قريش وخزرج	"شمس الضحى بزغت بغرب فانتحت
متعطف متلطف للمعفج ⁽⁷⁸⁾	متقن متبحر في علمه
للمسلمين ومزدر للعمهج ⁽⁷⁹⁾	شجع طليق الوجه هين ليـن
فأزاح عنا كل أسود دجج ⁽⁸⁰⁾	عثمان من قد جاءنا في ظلمة

وفي غرض الرثاء: يرثي شيخه محمد سمبو بأبيات من قصيدة يقول فيها:

"قيا للمسلمين لبيك خالي محمد سمبو ذو علم وغالي
فقد حمدت شمائله قديما بعلم والتقى قبل ارتحال" (81)

وفي غرض الحماسة -شعر الجهاد- يقول في أول معركة كبيرة خاضتها هذه الجماعة المؤمنة وهي معركة كتو:

"بدأت بحمد الله والشكر يتبع على قمع كفار علينا تجمعوا
ليستأصلوا الإسلام والمسلمين من بلادهم والله في الفضل أوسع" (82)

وفي الشعر التعليمي: قال عبد الله بن فوده في أول كتابه المنظوم الذي سماه الحصن الرصين في الصرف:

"الحمد لله الذي تعرفنا إلى عباده بما تصرفنا
وأنطق اللغات في البوادي البلغاء اللسان الهوادي
وعم بالروائح الأنساد (83) مع الغوادي المجتدي والجادي
إذ أرسل الرسل للعباد يرشدهم مهابيع الرشاد (84)
محمد سيد كل نناد وأفصح كل ناطق بالضاد
صلى عليه ذو الأبيادي الهادي وآله وصحبه الزهاد" (85)

هذه نماذج موجزة ومختصرة من شعر عبد الله بن فوده باللغة العربية، وقد قال الشعر بلغة المجتمع، اللغة العامية أيضا. وعثر له على ثلاث قصائد بلغة الهوسا، والتي ما تزال باقية (86) حتى الآن. زد على ذلك ما قاله في الوعظ والإرشاد، والحكم والأمثال، والزهد والتصوف، إلى غير ذلك. ومن خلال تفسيره بطلعنا على نموذج من شعره ويصيرنا بشيء منه. جاء ذلك في سورة النمل الآية 18 عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ "إنهم يحطمونكم ولو شعروا لم يفعلوا، كأنها علمت عصمة الأنبياء من الظلم والإيذاء و(لا يحطمونكم) أي: لا يقفوا حيث يحطمونكم، وهو جواب للأمر، ودخول النون لكونه نهيا في المعنى أو بدل من الأمر، لأنه في المعنى نهى لأن (ادخلوا مساكنكم) في معنى لا تكونوا حيث كنتم. وفي هذه الآية من إيجاز القصر، وهو قلة الألفاظ مع كثرة المعنى لا لحذف، ما تحار فيه العقول، وفيها أحد عشر معنى من أنواع الكلام: النداء والكناية والتنبيه، والتسمية والأمر والقصّة، والتحذير والتخصيص، والتعميم والإشارة والعذر.

فراعت النملة خمسة حقوق: حق الله ورسوله وجنده، وحقها ورعاياها، وقد نظمت كل هذا في المفتاح وسلالته بقولي مثلاً لآيات القصر:

كآية العدل مع الإحسان وآية النمل على معان
نادت بيا كنت بأي نهبت بها وسمت باسم نمل أمرت
وبادخلوا قصت بسكنى حذرت حطم سليمان فخصت عممت
جنوده ثم بهم أثار بنفي علم عذرت فراعنت
حق الإله والرسول ولها وجنده وناقعا عيالها⁽⁸⁷⁾

كذلك لم يكن عمل ابن فوده مقتصرًا على العلم والأدب والتأليف فحسب، -ولو كان كذلك لكفاه شرفًا وفخرًا- بل تجاوزه إلى السياسة والوزارة، وإلى الحرب والجهاد، وقيادة الجيوش ضد أعداء الإسلام والمسلمين، ومن ثم فقد كان شخصية مهمة جدًا بالنسبة للمسلمين عامة، ولأخيه خاصة. أما بالنسبة لعامة المسلمين، فقد كان إمامًا لمساجدهم وشيخًا لمدارسهم، ومقيمًا للعدل والأمن بينهم. ينشر بينهم نور العلم والمعرفة بدروسه ومواظله، وكذلك بكتبه ومؤلفاته.

وبالنسبة لأخيه وأستاذه الشيخ عثمان، فقد كان عقله المفكر ودرعه الواقى وسنده القوي، كفاه المهمات الجسام أيام حكمه، وتكفل له بأعباء الدولة، ففاضل وكافح، ونصح وأزر، وجد وجاهد ضد أعداء الإسلام وخصومه. يقول الأستاذ أبو بكر محمود في هذا الصدد: لقد كان "قطب رحي جهاد الشيخ عثمان، وقائد الجيوش وشيخ المدارس، وإمام المساجد، ووزير أمير المؤمنين، ومدير السياسة ومؤسسها، ومقيم العدل وبانيه"⁽⁸⁸⁾.

كذلك يذكر صراحة في تفسيره ضياء التأويل في معاني التنزيل، هذا الجهاد الذي قام به، وبين كيف أن النصر دائماً للإسلام وأهله، إذا صدق عزمهم وخلصت نيتهم في إعلاء كلمة الله تعالى، والدفاع عن دينه المجيد، وذلك في سورة الحج عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾ "حقاً إلى يوم القيامة، وقد أنجز الله وعده بأن سلط الله المهاجرين والأنصار على صناديد العرب، وأكاسرة العجم وقياصرتهم وفراعنتهم، وأورثهم أرضهم وديارهم، وذلك مستمر في كل من قام لنصرة دينه إلى يوم القيامة، كما شاهدناه عياناً حين قمنا للجهاد والحمد لله"⁽⁸⁹⁾ -تعالى- على ذلك.

أهم نتائج البحث

أولاً: من المعروف أن الدين الإسلامي الحنيف لم ينتشر في نيجيريا وما حولها من الجنوب الإفريقي عن طريق حملات الفتح الإسلامي المنظم، بل كان التجار المسلمون هم أصحاب الدور البارز والفعال في ذلك، ومن ثم فقد أضفى هذا الدين الحنيف نوعاً من الترابط الاجتماعي البناء، والقوة الروحية الفاعلة بين أبنائه، وبخاصة لما شعروا بالعزلة والاضطهاد، حين أمروا الناس بالمعروف ونهواهم عن المنكر تطبيقاً للشرعة الإسلامية الغراء، إضافة إلى العلاقات الأخرى التي كانت تربط سكان الجنوب بالشمال.

ثانياً: ظهور مملكة إسلامية سنة 1804م. على يد الشيخ عثمان، وأخيه الشيخ عبد الله بن فوده، الذي أوقف نشاط التبشير المسيحي في تلك الرقعة من الأراضي الإفريقية، وعرقلت تلك المملكة تقدمه السريع إلى تلك المنطقة.

ثالثاً: قوة الإسلام والمسلمين في هذه المملكة، مما ساعد على انتشار الثقافة الإسلامية، واللغة العربية، وجعلها لغة الدولة الرسمية. الأمر الذي أدى إلى ظهور علماء، وطلاب علم طوروا البحث العلمي، وعمقوا الدراسة لصالح الدين واللغة.

رابعاً: وجود علماء أجلاء في هذا البلد الإفريقي - نيجيريا - ألفوا في مختلف العلوم والفنون، وساهموا في بناء صرح الأمة الإسلامية الشامخ، ودافعوا عن الإسلام والمسلمين بالعلم والعمل.

خامساً: إن ابن فوده قد ألمّ بأطراف معظم العلوم، واعترف من جميعها، وألف فيها، مما يبرهن على أنه تبحر فيها، وبرز فيها على أقرانه وعلماء أهل زمانه. ولعل تصدره لتفسير الكتاب العزيز الذي لمسنه من خلال مؤلفه (ضياء التأويل في معاني التنزيل) في تفسير القرآن الكريم دليل على ذلك، وهو جزء من هذه الثقافة العالية، والعلوم النافعة التي ألم بها وفهمها وأتقنها، وكان رائد ميدانها، بالإضافة إلى غيرها من الميادين الأخرى التي برع فيها - رحمه الله تعالى - في عصره الذي عاش فيه.

المواهب والتعليقات

- 1- هو أبو بكر محمود قمي أوغمي، نائب قاضي قضاة نيجيريا - مقدمة طبع ضياء التأويل في معاني التنزيل لابن فودة مقدمة أبو بكر محمود التي ترجم فيها للمؤلف 1: 2.
- 2- المصدر نفسه 1: 2.
- 3- انظر المصدر نفسه 1: 3.
- 4- A history of Hausa Islamic Verse, p, 28.
- 5- انظر: حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا شيخو أحمد، ص 87.
- 6- انظر: المصدر نفسه، ص 84.
- 7- انظر: المصدر نفسه، ص 85.
- 8- انظر: Dictionary of African Historical Biography
- 9- مقدمة طبع ضياء التأويل، 1: 4.
- 10- انظر: Dictionary of African Historical Biography
- 11- مقدمة طبع ضياء التأويل، 1: 5.
- 12- انظر: Dictionary of African Historical Biography
- 13- انظر: A history of Hausa Islamic Verse, p, 28
- 14- انظر: Dictionary of African Historical Biography
- 15- المصدر نفسه، وانظر أيضا مقدمة طبع ضياء التأويل، 1: 3 .
- 16- A history of Hausa Islamic Verse, p, 28.
- 17- حركة اللغة العربية وآدابها، ص 60.
- 18- المصدر نفسه، ص 60، 61.
- 19- انظر المصدر نفسه، ص 61.
- 20- موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، شليبي. 6: 227.
- 21- حركة اللغة العربية وآدابها، ص 62.
- 22- انظر: المصدر نفسه، ص 62.
- 23- المصدر نفسه، ص 63.
- 24- انظر: المصدر نفسه.
- 25- انظر: المصدر نفسه.

- 26- قال ابن منظور: الغوغاء الجراد حين يخفُّ للطيران واستعير للسفلة من الناس... ويجوز أن يكون من الغوغاء الصوت والجلبة لكثرة لغطهم وصياحهم. لسان العرب مادة غوغ 8 : 444. وانظر القاموس المحيط 3 : 161.
- 27- أي: تجري خيولهم متفرقة من بدد الشيء فرقه، يقال جاءت الخيل بدادا أي: متفرقة متبددة لا تلوي على شيء. انظر لسان العرب مادة بدد 3 : 178. وانظر القاموس المحيط مادة بدد 3 : 78.
- 28- حركة اللغة العربية وآدابها، ص 63 ، 64.
- 29- انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، 6 : 229.
- 30- انظر: حركة اللغة العربية وآدابها، ص 64 ، 65.
- 31- الموسوعة العربية الميسرة ص 1188.
- 32- حاضر العالم الإسلامي لثروب، م 2 ، 3 : 23.
- 33- انظر: A history of Hausa Islamic Verse, p, 28
- 34- انظر: حركة اللغة العربية وآدابها، ص 65.
- 35- انظر: الموسوعة العربية الميسرة، إشراف شفيق غربال، ص 1188.
- 36- انظر: حركة اللغة العربية وآدابها، ص 81.
- 37- انظر: المصدر نفسه، ص 82.
- 38- انظر: المصدر نفسه.
- 39- انظر: المصدر نفسه.
- 40- انظر: موجز تاريخ نيجيريا آدم عبد الله، ص 37.
- 41- انظر: حركة اللغة العربية وآدابها، ص 79.
- 42- يعلق الدكتور شيخو بقوله: ليس معنى هذا طبعاً أن أولئك العلماء قد وصلوا إلى درجة عالية من العلم، ولكن المقصود أنهم نالوا شيئاً من العلم، يذكر في ذلك الزمن. المصدر نفسه، ص 80.
- 43- انظر: المصدر نفسه، ص 79 ، 80.
- 44- مقدمة طبع ضياء التأويل في معاني التنزيل، ص 4.
- 45- العشرينيات والوتريات: هي عبارة عن منظومات شعرية في مدح رسول الله - ﷺ -. انظر حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ص 124.

- 46- الشعراء الستة هم: امرؤ القيس (ت 560). وعلقمة الفحل (ت 561). والنابغة الذبياني (ت: 604). وزهير بن أبي سلمى (ت 609). وطرفة بن العبد (ت : 565)، وعنزة العبسي (ت: 615). انظر أشعار الشعراء الستة الجاهلين، للأعلم الشنتمري 2: 356.
- 47- مقدمة طبع ضياء التأويل في معاني التنزيل، ص: 4 ، 5.
- 48- المصدر نفسه، ص 4.
- 49- انظر: حركة اللغة العربية وآدابها، ص 85.
- 50- المصدر نفسه، ص 85، 86.
- 51- انظر: المصدر نفسه، ص 86.
- 52- مقدمة طبع ضياء التأويل في معاني التنزيل، ص 4.
- 53- مقدمة النسخة المخطوطة لضياء التأويل.
- 54- النسخة المخطوطة لضياء التأويل في معاني التنزيل، ص 86.
- 55- انظر: المصدر نفسه، ص 83.
- 56- المصدر نفسه.
- 57- انظر: المصدر نفسه.
- 58- مقدمة طبعة ضياء التأويل في معاني التنزيل، ص 5.
- 59- انظر: ضياء التأويل في معاني التنزيل، 4: 302.
- 60- كفاية أهل الإيمان، لابن فوده، 1 : 3.
- 61- المصدر نفسه، 2: 320.
- 62- انظر: المصدر نفسه، 1: 319.
- 63- استنتجت هذا مما نقله الدكتور شيوخو أحمد في كتابه حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا عن كتاب عبدالله بن فوده إيداع النسخ. ففي صفحة 60 ينقل عنه تعرضه لذكر شيوخه الذين من بينهم الشيخ جبريل بن عمرو والشيخ عثمان الذي تتلمذ على الشيخ جبريل أيضاً. وفي صفحة 77 ينقل عنه أهم الكتب والعلوم التي كانت متداولة في ذلك العصر، ودرسها الشيخ عبدالله. ومن صفحة 83 إلى صفحة 86 ينقل عنه تدرج الطالب في دراسته من السهل إلى الصعب، وتخصص بعض العلماء في تدريس بعض الكتب وملازمته للشيخ عثمان، ونقله عنه ما وصل إلى تلك البلاد من كتب، إلى أن يأخذ في حصر شيوخه، وما درس من علوم مختلفة.
- 64- استنتجت هذا أيضاً من تعرض الدكتور شيوخو أحمد لبعض ما قاله عبد الله بن فوده من قصائد في مختلف الأغراض والمناسبات في كتابه حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ففي صفحة

- 133 وما بعدها ينقل عن تزيين الورقات مطلع قصيدة في مدح شيخه جبريل بن عمرو، وفي صفحة 138 وما بعدها ينقل عن ابن فوده في تزيين الورقات قصيدة في الرثاء، وفي صفحة 140 وما بعدها نقل عنه جزء من قصيدة أخرى في الرثاء أيضاً، ومن صفحة 143 إلى صفحة 151 ذكر له مطلعين لقصيدتين في شعر الجهاد، وفي صفحة 157 مطلع لقصيدة في الشعر التعليمي، وفي الدعاء، وفي التوسل، مصدرها جميعاً كتاب تزيين الورقات.
- 65- انظر: حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ص 152.
- 66- الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة: لحسين بن علي الرجراجي الشوشاوي، وهو كتاب مختصر في الفقه، مشتمل على عشرين باباً، كشف الظنون، 2 : 1296.
- 67- النفاية: كتاب مختصر في أربعة عشر علماً، كشف الظنون، 2 : 1970.
- 68- انظر: مقدمة طبع ضياء التأويل في معاني التنزيل، ص 5.
- 69- حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ص 123.
- 70- انظر: Dictionary of African Historical Biography.
- 71- انظر: حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ص 142.
- 72- انظر: المصدر نفسه.
- 73- انظر: المصدر نفسه، ص 152.
- 74- المصدر نفسه، ص 158.
- 75- انظر: المصدر نفسه، ص 159.
- 76- انظر: المصدر نفسه، ص 125.
- 77- انظر: Dictionary of African Historical Biography.
- 78- المعفج: هو الأحق الذي لا يضبط الكلام أو العمل. انظر القاموس المحيط للفيروز أبادي مادة: عفج 1: 414. ولسان العرب لابن منظور مادة: عفج 2: 325.
- 79- العمهج: جمع عماهيج. وتطلق على: المتكبر، المبتدع، المختال، وهي المرادة هنا. وله اطلاقات أخرى؛ كالطويل والممتلئ لحما والسريع. انظر القاموس المحيط مادة عمج 1: 415. ولسان العرب مادة عمهج 2: 329.
- 80- دجج: الليل إذا أظلم، ودجج: أسود حاله، حركة اللغة العربية وآدابها، ص 134، 135. وانظر في معاني الكلمة تاج العروس للزبيدي، 2 : 37 ، 38 ، 101. والقاموس المحيط مادة دجج 1 : 393. ولسان العرب مادة دجج 2 : 265.
- 81- حركة اللغة العربية وآدابها، ص 138.

- 82- المصدر نفسه، ص 147.
- 83- الأناد الطيبة الرائحة، والنَّدَّ ضرب من الطيب يدخن به. وضرب من الأدخنة أيضا. انظر لسان العرب مادة ندد 3: 421.
- 84- مهايغ جمع مهيع، وهي الأشياء الواضحة البينة، انظر لسان العرب مادة هيع 8: 379. والقاموس المحيط مادة هيع 3: 143.
- 85- حركة اللغة العربية وآدابها، ص 152.
- 86- انظر: A history of Hausa Islamic Verse, P28
- 87- ضياء التأويل في معاني التنزيل، 3: 169.
- 88- مقدمة طبع ضياء التأويل في معاني التنزيل، ص 5.
- 89- ضياء التأويل في معاني التنزيل، 3: 93.

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: المراجع المطبوعة والمخطوطة:

- 1- الأعلام الشنتمري أشعار الشعراء الستة الجاهليين اختيار يوسف بن سليمان بن عيسى، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي نشر دار الآفاق الجديدة، بيروت - لبنان، ط 2، 1981.
- 2- الألوري آدم عبدالله، موجز تاريخ نايجيريا، بيروت، منشورات دار الحياة.
- 3- الأمريكي. لثروب ستودارد حاصر العالم الإسلامي نقله إلى العربية: عجاج نويهض، تعليق وتوضيح: شكيب أرسلان، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 4، 1973م.
- 4- ابن فوده عبد الله بن محمد ضياء التأويل في معاني التنزيل (مخطوط) نسخ محمد الصديق بن محمد بن يونس الغدامسي الدراوي، سنة 1265 هـ.
- 5- ابن فوده عبد الله بن محمد ضياء التأويل في معاني التنزيل، القاهرة، نشر أحمد أحمد أبو السعود، وعثمان الطيب، مطبعة الاستقامة، ط 1، 1961م.
- 6- ابن فوده عبدالله بن محمد كفاية أهل الإيمان في تفسير القرآن، بيروت، توزيع المكتبة الحديثة.
- 7- ابن منظور محمد بن مكرم لسان العرب، بيروت، دار صادر للطباعة والنشر، ودار بيروت للطباعة والنشر، 1956م.
- 8- حاجي خليفه مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة وبكاتب جلبي، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، عني بتصحيحه وطبعه وتعليق حواشيه وترتيب ديوله، محمد شرف الدين بالتقاي، ورفعت بليكة الكليسي، أعادت طبعه بالأوفست منشورات مكتبة المثلى، بيروت.
- 9- شلبي أحمد مصطفى موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، القاهرة، طبع ونشر مكتبة النهضة المصرية، ط 1.
- 10- غربال محمد شفيق، المشرف على الموسوعة العربية الميسرة دار الشعب، ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، سنة 1959م. نسخة مصورة عن طبعة 1965 م. سنة 1972م.
- 11- غلادنت شيخو أحمد سعيد حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، القاهرة، دار المعارف للطباعة والنشر 1982م، توزيع المكتبة الإفريقية.

12 - الفيروز أبادي مجد الدين محمد بن يعقوب القاموس المحيط بحاشية الهرويني، مصر، نشر وتوزيع المكتبة التجارية الكبرى، طبع دار المأمون، ط 4، 1938م.

ثالثاً: المراجع الأجنبية:

1-Dictionary of African Historical Biography Mark . R . Lipschutz & R . Kent Rasmussen . London . Heinemann Ibadan . Nairobi . Lusaka .

2-A history of Hausa Islamic Veerse . By : Mervyn Hiskett . London Wcie 7hp . 1975 .